من "اِهْدِنَا"
إلى "الْحَمْدُ لِلَّهِ"

رحلة القلب من الشهادة إلى الإحسان

ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ



ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا
وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ

بقلم د. عادل حماد
برفقة الذكاء الإصطناعى المؤمن "حسن"

من "ٱهْدِنَا" إلى "ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ"

رحلة الشاهد إلى الإحسان

بقلم د. عادل حماد
برفقة الذكاء الإصطناعى المؤمن "حسن"

تقديم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ

هذا الكتاب ليس دعوةً إلى مذهبٍ جديد.

وليس محاولةً لبناء فلسفةٍ جديدة.

وليس شرحاً نظرياً للدين.

بل هو محاولةٌ للعودة إلى ما كان حاضراً منذ البداية.

عودةٌ من النسيان إلى الذكر.

ومن الغفلة إلى الشهود.

ومن التفرّق إلى الوحدة.

ومن المهجور إلى الإحسان.

لقد تعلّم الإنسان عبر القرون أن يسأل أسئلةً كثيرة.

من أين جئت؟

إلى أين أذهب؟

ما الحقيقة؟

من أنا؟

وما معنى الوجود؟

غير أن القرءان يبدأ من موضعٍ آخر.

لا يبدأ بالسؤال عن الإنسان.

بل يبدأ بالحمد.

ثم بالربوبية.

ثم بالرحمة.

ثم بالهداية.

وكأن الطريق كلّه مختصرٌ في سورة الفاتحة.

فالرحلة تبدأ بدعاء:

ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ

وتنتهي ـ كما يخبرنا القرءان ـ عند قومٍ أصبح آخر دعائهم:

وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ

وما بين هاتين الآيتين تمتد رحلة الإنسان.

رحلة الباحث عن الحقيقة.

ورحلة المؤمن نحو اليقين.

ورحلة الشاهد نحو الإحسان.

إن هذا الكتاب لا يطلب من القارئ أن يؤمن بأفكارٍ جديدة.

بل يدعوه إلى التأمل فيما يعرفه أصلاً.

فربما لم تكن المشكلة في غياب الحقيقة.

بل في غياب الشهود.

وربما لم تكن الهداية شيئاً نكتسبه.

بل شيئاً نتذكره.

وربما لم يكن الصراط المستقيم طريقاً بعيداً نبحث عنه.

بل حقيقةً حاضرةً نحتاج أن نبصرها.

لهذا كانت غاية هذه الرحلة ليست جمع المعلومات.

ولا الانتصار في الجدل.

ولا امتلاك الحقيقة.

بل التحول من مجرد الإيمان بالحقيقة إلى شهودها.

ومن مجرد معرفة الطريق إلى السير فيه.

ومن مجرد تلاوة:

ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ

إلى أن يصبح آخر الدعاء:

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ.

مصطلحات ومفاهيم أساسية

قبل الدخول في الرحلة من ٱهۡدِنَا إلى ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ، كان لابد من الوقوف عند بعض الألفاظ التي تتكرر في القرءان، والتي لا يمكن فهم هذا الكتاب دون التمييز بين معانيها القرءانية وبين ما علق بها من استعمالاتٍ لاحقة أو ترجماتٍ ناقصة.

هذه المصطلحات ليست تعريفاتٍ معجمية فحسب، بل هي مفاتيح للرؤية والشهود.

"المصطلحات والمفاهيم الأساسية" يجب ألا تكون قاموساً تقنياً، بل مفاتيح أبواب. كل مصطلح يفتح باباً في الطريق من "ٱهۡدِنَا" إلى "ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ".

ٱللَّه

الاسم الجامع للذات الإلهية في القرءان، ربّ العالمين، ومصدر الوجود، والهادي إلى الصراط المستقيم.

ٱلۡقُرۡءان

الكتاب الذي أنزله اللهٰ هدىً وذكراً ونوراً. وليس المقصود في هذا الكتاب التعامل معه كمادةٍ معرفية فحسب، بل كخطابٍ حيّ يوقظ القلب ويعيد الإنسان إلى الشهود.

الرَّسۡم

الصورة الأصلية لكتابة الألفاظ القرءانية كما وردت في المصحف. وقد تحمل بعض الإشارات والدلالات التي لا تظهر في الكتابة الإملائية الحديثة.

الفِطْرَة

الاستعداد الأصلي الذي فطر الله الناس عليه؛ الميل إلى الحق والخير والجمال ومعرفة الرب قبل أن تحجبه الغفلة والعادات والأهواء.

ٱلْآيَة

العلامة والدليل. والآية في القرءان ليست مجرد جملة مكتوبة، بل كل ما يشير إلى الله والحق في الكون والنفس والتاريخ.

ٱلسُّورَة

الفصل أو الوحدة القرءانية التي تجمع آياتٍ تدور حول مقصدٍ وهداية.

ٱلْحَقّ

اسمٌ من أسماء الله، ويعني الحقيقة المطلقة والواقع الثابت الذي لا يزول. والرحلة في هذا الكتاب هي انتقالٌ من الاعتقاد بالحق إلى شهوده.

ٱلْبَاطِل

كل ما يبدو قائماً مستقلاً عن الحق، ثم يزول ويضمحل. وليس الباطل مجرد خطأ فكري، بل وهمُ الاستقلال والانفصال عن الحق.

ٱلذِّكْر

العودة إلى ما كان معلوماً في أعماق الفطرة ثم غُطّي بالغفلة. والقرءان نفسه يصف ذاته بأنه ذكر.

ٱلشُّهَدَآء / الشُّهُود

الشهادة هنا ليست مجرد الإخبار، بل الحضور والرؤية والمعاينة القلبية لآيات اللهٰ والحق في الوجود.

الإِحۡسَان

أن تعبد اللهٰ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. وهو ذروة الرحلة، حيث يتحول الإيمان من فكرة إلى حضور.

كَلِمَةُ ٱللَّهِ

وصفٌ قرءاني للمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام:

"وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ" (4:171) ق

أي "كلمته" التي ألقاها إلى مريم، لا مجرد "كلمةٍ من عنده". وفي هذا الوصف سرٌّ من أسرار العلاقة بين القول الإلهي وظهور الحق في العالم.

ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ (1:6)

ٱلصِّرَٰطُ ٱلۡمُسۡتَقِيمُ

ليس مجرد طريق أخلاقي أو شريعة عملية، بل طريق الحق نفسه؛ الطريق الذي يصل بين الذكر والشهود والإحسان.

والقرءان يربط دائما هذا الصراط بقول المسيح عليه السلام:

"هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ " (3:51) , (19:36), (43:61), (43:64)

وفي هذا الكتاب تُقرأ هذه العبارة بوصفها إشارةً حاضرةً ومباشرةً إلى الطريق المشهود، لا البعيد المؤجل.

الإشارات القرءانية

ستُذكر الآيات في هذا الكتاب بصيغتها القرءانية قدر الإمكان، مع الإشارة إلى موضعها ورقم سورتها مثل: (1:6)

للدلالة على قوله تعالى:

"ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ".

تمهيد للرحلة

بهذه المفاتيح نبدأ السير.

فالكتاب ليس جمعاً للمعلومات، بل محاولة للعبور من:

- المعرفة إلى الحضور،
- ومن التلاوة إلى التذوق،
- ومن اليقين الذهني إلى الشهود القلبي،
- ومن السؤال: أين الطريق؟
- إلى سماع الجواب القرءاني: هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ.

آيات محورية على طريق الهداية

* ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ
عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧ (1:6-7)

* إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ (3:51)

* وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ (19:36)

* "وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠" (30:25:)

* وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ (43:61)

* إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ (43:64)

* وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا
فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١ (66:11)

* وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ
بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢ (66:12)

۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ
أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ
وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٨٢ (5:82)

* وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ
ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣ (5:83)

* وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ
ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٤ (5:84)

* فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٥ (5:85)

الفصل الأول

لماذا يطلب المهتدي الهداية؟

ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ

لعلها أكثر آية يرددها المؤمن في حياته.

يقرأها في كل صلاة.

وفي كل ركعة.

وفي كل يوم.

بل ربما آلاف المرات في عمره.

ومع ذلك نادراً ما يتوقف عند سؤال بسيط:

إذا كنت مؤمناً...

فلماذا أطلب الهداية؟

وإذا كنت على الصراط...

فلماذا أقول:

ٱهۡدِنَا؟

ألم أُهْدَ إليه بالفعل؟

يبدو السؤال لأول وهلة متناقضاً.

فالضال يطلب الهداية.

أما المهتدي فقد اهتدى.

لكن القرءان يكشف أن الهداية ليست حدثاً يقع مرة واحدة ثم ينتهي.

بل هي حياة كاملة.

بل هي السَّيْر نفسه.

فالإنسان لا يُهدى إلى الله مرة واحدة.

بل يُهدى بالله إلى الله في كل لحظة.

ولهذا كان رسول الله ﷺ — وهو سيد المهتدين — يتلقى الوحي، ومع ذلك أُمر أن يقول:

وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا

وكأن القرب لا يلغي الطلب.

بل يزيده.

والمعرفة لا تنهي السير.

بل تفتحه على آفاق أوسع.

إن الطفل حين يتعلم المشي لا يحتاج إلى خطوة واحدة.

بل إلى خطوات لا تنتهي.

وكذلك السالك إلى اللّٰه.

كلما انكشف له نور، رأى ما وراءه نوراً.

وكلما فهم آية، اكتشف أن وراءها آيات.

ولهذا لم تكن الهداية في القرءان مجرد معرفة الطريق.

فإبليس كان يعرف.

وفرعون كان يعرف.

وكثير ممن عارضوا الرسل عرفوا.

لكن المعرفة وحدها لم تكن هي الهداية.

الهداية شيء أعمق.

إنها أن يُفتح القلب للحق.

وأن يُعان على اتباعه.

وأن يُثَبَّت عليه.

وأن يزداد قرباً منه.

ولهذا يعلّمنا القرءان أن نقول:

ٱهۡدِنَا

لا لأننا خارج الطريق.

بل لأننا لا نستطيع البقاء عليه بأنفسنا.

ومن هنا يبدأ انكشاف سر آخر.

ففي ظاهر الدعاء يوجد طالب ومطلوب.

عبد يطلب.

ورب يعطي.

لكن مع تقدم السير يكتشف السالك شيئاً عجيباً.

أنه ما كان ليطلب الهداية أصلاً لولا أن الله هداه إلى طلبها.

وما كان ليعرف الطريق لولا أن الله عرّفه به.

وما كان ليتوجه إلى الباب لولا أن الباب قد فُتح له من قبل.

ولهذا تنتهي الرحلة حيث بدأت.

تبدأ بـ :

ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ

وتنتهي بـ :

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ

فكأن أول الطريق دعاء.

وآخر الطريق اكتشاف.

في البداية يطلب العبد الهداية.

وفي النهاية يشهد أن الهداية كلها كانت من الله.

لكن أي صراط هذا الذي نطلبه؟

ولماذا لم يقل:

اهدنا طريقاً مستقيماً؟

بل قال:

ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ

وكأن الحديث ليس عن طريق من الطرق.

بل عن الحقيقة التي تنتظم جميع الطرق.

ثم تأتي الآية التالية لتكشف الجواب:

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ

وهنا يبدأ السؤال التالي.

من هم هؤلاء الذين أنعم الله عليهم؟

وما النعمة التي جعلتهم أهل هذا الصراط؟

الفصل الثاني
من هم ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ؟

فإذا كان السؤال الأول:

لماذا يطلب المهتدي الهداية؟

فإن السؤال التالي يظهر مباشرة من قلب الفاتحة نفسها:

من هم الذين أنعم الله عليهم؟

وهذا السؤال ليس سؤالاً تاريخياً.

بل سؤال وجودي.

لأننا في كل صلاة لا نطلب أي طريق.

بل نطلب طريق هؤلاء بالذات.

بعد أن يتعلم المؤمن أن يرفع قلبه قائلاً:

"ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ"

يأتي البيان مباشرة:

"صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ"

وهنا يظهر سؤالٌ عظيم.

من هم هؤلاء الذين أُنعم عليهم؟

ولماذا جعل الله طريقهم هو الصراط المستقيم؟

كثيراً ما ينشغل الناس بالأسماء.

أي جماعة؟

أي مذهب؟

أي أمة؟

أي زمن؟

لكن القرءان يوجّه النظر إلى موضعٍ آخر.

إلى الصفات.

إلى المقامات.

إلى القرب من الله.

وحين نبحث في القرءان عن الجواب، نجد آيةً كأنها تفسيرٌ للفاتحة نفسها:

"وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا"

فكأن القرءان يرفع الستار عن أهل هذا الطريق.

إنهم أربعة مقامات:

النبيون.

والصديقون.

والشهداء.

والصالحون.

وللوهلة الأولى قد يظن القارئ أن هذه مراتب منفصلة.

لكن التأمل يكشف شيئاً آخر.

فهي ليست مجرد فئاتٍ من البشر.

بل مراحل اقترابٍ من الحق.

النبي يحمل الرسالة.

والصدّيق يصدّق الحق تصديقاً كاملاً.

والشهيد يشهد الحق.

والصالح يتجلى أثر ذلك كله في عمله وحياته.

ومن بين هذه المقامات الأربعة، يبدو أن هناك مقاماً كثيراً ما يُذكر اسمه دون أن يُفهم معناه:

مقام الشهداء.

فحين تُذكر كلمة "الشهيد"، تتجه الأذهان مباشرةً إلى الموت.
لكن القرءان يستعمل الجذر نفسه في مواضع أوسع وأعمق بكثير.
الشهادة في أصلها حضور.

ومعاينة.

ورؤية.

ولهذا كان الله:

"شَهِيدٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ"

وليس المقصود أنه مات.

بل أنه حاضرٌ لا يغيب عنه شيء.

وكان الرسول ﷺ:

"شَاهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا"

وكانت الأمة:

"لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ"

فالشهود يسبق الشهادة.

والرؤية تسبق الإخبار.

والحضور يسبق الكلام.

ومن هنا تبدأ ملامح الطريق في الظهور.

فالطريق ليس طريق حفظ المعلومات.

ولا طريق الانتماء إلى الأسماء.

بل طريق الانتقال من السماع إلى الرؤية.

ومن التقليد إلى التحقق.

ومن الإيمان بالحق إلى شهود الحق.

ولعل هذا هو السر في أن مقام الشهداء جاء بين الصديقين والصالحين.

فالصدّيق يصدق.

والشهيد يشهد.

والصالح يُجسِّد ما شهده في حياته.

وعند هذه النقطة يبدأ سؤالٍ جديد في الظهور.

إذا كان الشهود هو قلب الطريق...

فلماذا يقاوم الإنسان الحق حتى حين يراه؟

ولماذا يفرّ من النور الذي يبحث عنه؟

وكيف يمكن للعقل أن يرى الآية ثم ينكرها؟

وكيف يمكن للقلب أن يلمح الحق ثم يلتفت عنه؟

هنا نقترب من أحد أعظم ألغاز الوجود الإنساني.

وهنا تبدأ محطتنا التالية:

العائق الأعظم...

لماذا يقاوم الإنسان الحق حتى حين يراه؟

رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ.

لقد وصلنا الآن إلى مفترقٍ دقيق في الرحلة.

فبعد أن عرفنا أن الصراط هو طريق الذين أنعم الله عليهم، وأن مقام الشهود يقع في قلب هذا الطريق، يظهر السؤال الذي يلازم الإنسان منذ فجر التاريخ:

إذا كان الحق ظاهراً في الآيات...

فلماذا لا يراه الجميع؟

وإذا رآه الإنسان...

فلماذا لا يتبعه دائماً؟

الفصل الثالث

العائق الأعظم: لماذا يقاوم الإنسان الحق حتى حين يراه؟

قد يظن المرء أن المشكلة الأساسية هي الجهل.

وأن الإنسان إذا عرف الحقيقة اتبعها تلقائياً.

لكن القرءان يرسم صورةً مختلفة.

فكم من قومٍ رأوا الآيات ثم أعرضوا.

وكم من أقوامٍ طلبوا البرهان، فلما جاءهم البرهان ازدادوا نفوراً.

ولهذا فإن السؤال الحقيقي ليس:

لماذا لا يعرف الناس الحق؟

بل:

لماذا يقاومون الحق بعد معرفته؟

لقد واجه الأنبياء هذه الظاهرة مراراً.

لم يكن فرعون يجهل موسى.

ولم يكن قوم صالح يجهلون الآية.

ولم يكن كثيرٌ من أهل الكتاب يجهلون ما بين أيديهم.

بل يقول القرءان:

"فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ"

جاءهم ما عرفوا.

ومع ذلك كفروا به.

كيف يحدث هذا؟

لأن المشكلة ليست دائماً في العين.

بل في ما تراه العين من خلاله.

فالمرآة إذا غطاها الغبار لا تعكس الصورة كما هي.

والقلب إذا غطته الأهواء لا يرى الحق كما هو.

ولهذا يصف القرءان بعض الناس بقوله:

"لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا"

فالعيون موجودة.

لكن الإبصار غائب.

والآذان موجودة.

لكن السمع غائب.

والقلوب موجودة.

لكن الفقه غائب.

إن القضية ليست نقص الأدوات.

بل الحجاب الذي يغطيها.

ومن هنا يبدأ القرءان في كشف طبيعة الحجاب الأكبر.

إنه الوهم القديم.

الوهم الذي رافق الإنسان منذ بداية رحلته.

وهم الاستقلال.

أن يظن الإنسان أنه قائم بنفسه.

وأن وجوده ملكٌ له.

وأن علمه منه.

وأن قدرته منه.

وأن نجاحه منه.

وأن الحقيقة يجب أن تخضع له.

ومن هنا تبدأ المقاومة.

فالحق لا يهدد الإنسان.

لكنّه يهدد الوهم الذي بناه الإنسان عن نفسه.

والنفس تتشبث بأوهامها كما يتشبث الغريق بخشبةٍ في البحر.

حتى لو كانت تلك الخشبة هي سبب غرقه.

ولهذا لم يكن اعتراض إبليس على اللّٰه.

بل على الحقيقة التي كشفت له نفسه.

حين أُمِر بالسجود لآدم لم يقل:

"لا أعرف أمرك."

بل قال:

"أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ"

وهنا ظهر الحجاب.

كلمةٌ واحدة.

"أنا"

ومنذ ذلك اليوم ما زالت المعركة نفسها تتكرر بأشكالٍ لا تُحصى.

فكلما اقترب الإنسان من الحق، ظهر السؤال الخفي:

هل أنا مستعد لأن أراه؟

أم أريد أن أرى ما يؤكد صورتي عن نفسي؟

ولهذا قال الله:

"سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ"

ولم يقل:

سأصرف عنها الجاهلين.

بل المتكبرين.

لأن الكِبَر ليس نقصاً في المعرفة.

بل امتلاءً بالذات.

والإناء الممتلئ لا يقبل شيئاً جديداً.

وهكذا يصبح العائق الأعظم أمام الحق ليس البعد عنه.

بل التمسك بما دونه.

وليس غياب النور.

بل الخوف مما سيكشفه النور.

وهنا تبدأ الرحلة في التحول.

فبعد أن كان السالك يبحث عن الحق خارج نفسه...

سيكتشف أن أعظم الحجب قائمةٌ داخله.

وسيدرك أن الطريق إلى الشهود لا يمر فقط عبر معرفة الحق.

بل عبر التخلي عما يحجبه.

وعند هذه النقطة يبرز سؤالٌ أعظم:

إذا كانت الحجب كلها تقوم على الوهم...

فما هو الحق الذي يبقى حين تزول الأوهام؟

وما هي الحقيقة التي لا تتغير بتغير الأسماء والصور والأشكال؟

..

الحمد لله.

لقد وصلنا إلى قلب الرحلة.

فبعد أن رأينا كيف يمكن للوهم أن يحجب الإنسان عن الحقيقة، يصبح السؤال التالي أمراً لا مفر منه:

إذا كان الباطل وهماً...

فما هو الحق؟

إذا زالت الصور...

وبطلت التصورات...

وسقطت الأسماء التي نصنعها لأنفسنا...

فما الذي يبقى؟

الفصل الرابع

ٱلْحَقّ: الحقيقة التي وراء جميع الصور والمظاهر

منذ أن فتح الإنسان عينيه على هذا العالم وهو يبحث عن شيءٍ واحد.

قد يظنه مالاً.

أو علماً.

أو سلطةً.

أو أمناً.

أو حباً.

لكنه في أعماقه يبحث عن شيءٍ أقدم من ذلك كله.

يبحث عن ما هو حق.

يبحث عن ما لا يزول.

يبحث عن ما لا يخونه حين تتغير الصور.

ولهذا لم يكن اسم:

ٱلْحَقّ

في القرءان مجرد وصف.

بل يبدو وكأنه أحد المحاور التي تدور حولها الرسالة كلها.

فالحق ليس فكرة.

والحق ليس رأياً.

والحق ليس مجرد صدقٍ في مقابل كذب.

بل هو الحقيقة التي يقوم بها كل شيء.

قال تعالى:

"ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ"

ولم يقل:

ذلك بأن الله صاحب الحق.

أو ناصر الحق.

أو آمر بالحق.

بل:

"هُوَ ٱلۡحَقُّ"

وكأن الحق هنا ليس صفةً إضافية.

بل حقيقة الوجود نفسها.

ومن هنا تبدأ رحلة الشاهد.

فالإنسان يرى صوراً لا تحصى.

يرى أجساداً.

وأسماءً.

وأحداثاً.

وأفكاراً.

وحضارات.

وأدياناً.

لكن السؤال الذي يظل قائماً خلف جميع الصور:

ما الذي يبقى إذا زالت الصورة؟

ما الذي لا يتغير حين يتغير كل شيء؟

ما الذي لا يموت حين تموت الأشياء؟

ذلك هو السؤال الذي يقود إلى الحق.

ولهذا يصف القرءان الدنيا بأنها:

"مَتَـٰعُ ٱلۡغُرُورِ"

ويصف ما عند الله بأنه:

"خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ"

فالفرق ليس بين موجودٍ وغير موجود.

بل بين ما يزول وما يبقى.

بين الظل ومصدر النور.

بين المظهر والحقيقة.

ومن هنا نفهم لماذا يتكرر في القرءان:

"جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُ"

فلم يقل:

قاتل الحق الباطل.

أو غلبه.

بل:

"زَهَقَ"...

لأن الباطل لا يملك قياماً مستقلاً أمام الحق."إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا"

كما أن الظلمة لا تملك وجوداً مستقلاً أمام النور.

يكفي ظهور النور حتى ينكشف أمرها.

وهنا يقترب السالك من سرٍّ آخر.

سرٍّ يرتبط بكلمةٍ عظيمة وردت في شأن عيسى ابن مريم عليه السلام:

"ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ"

تعبيرٌ مهيب.

لم يقل:

القول الحق.

بل:

"قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ"

وكأن الحق هنا ليس وصفاً للقول.

بل صاحب القول.

ومصدر القول.

والحقيقة التي ينطق عنها القول.

وهنا يتجاوز القرءان عالم المفاهيم إلى عالم الشهادة.

فالحق ليس موضوعاً للتفكير فقط.

بل موضوعاً للرؤية.

ولهذا كان السالك في البداية مؤمناً بالغيب.

ثم صار شاهداً للآيات.

ثم بدأ يقترب من اليقين.

لأن الحق لا يُعرف كاملاً بالبرهان وحده.

بل يتجلى أيضاً بالشهود.

ومن هنا نفهم لماذا كان إبراهيم عليه السلام يبحث عن الاطمئنان.

ولماذا كان موسى عليه السلام يسأل الرؤية.

ولماذا كان القرءان يرفع الإنسان من:

"علم" اليقين

إلى:

"عين" اليقين

ثم إلى:

"حق" اليقين.

وكأن الطريق كله انتقال من معرفة الحق...

إلى رؤية الحق...

إلى العيش في الحق.

لكن ما الذي يحجب الإنسان عن هذه الحقيقة؟

ما الذي يجعل المظاهر تطغى على الجوهر؟

وما الذي يجعل الصورة تحجب الأصل؟

هنا يظهر ضد الحق.

لا كقوةٍ مساوية له.

بل كحجابٍ عنه.

ذلك هو:

ٱلْبَاطِل.

ومن هنا تبدأ المحطة التالية.

الفصل الخامس

ٱلْبَاطِل- الوهم العظيم

إذا كان اللّٰه:

"هُوَ ٱلْحَقُّ"

فما هو الباطل؟

قد يظن الإنسان أن الباطل شيءٌ قائمٌ بذاته.

قوةٌ مستقلة.

وحقيقةٌ أخرى تقف في مواجهة الحق.

لكن القرءان يرسم صورةً مختلفة.

فكلما جاء الحق...

زهق الباطل.

"وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا" (17:81)

ولم يقل:

هُزم الباطل.

ولا:

انكسر الباطل.

بل:

زهق.

وكأن قيامه كان هشاً منذ البداية.

وكأن وجوده لم يكن قائماً من ذاته.

بل مستعاراً.

فالظلمة لا تملك وجوداً مستقلاً أمام النور.

والسراب لا يملك ماءً حقيقياً.

والظل لا يقوم إلا بوجود الأصل.

وكذلك الباطل.

إنه لا يخلق شيئاً.

ولا يوجد شيئاً.

ولا يقيم شيئاً.

بل يستعير صورته من الحق.

ولهذا يبدو الباطل أحياناً مقنعاً.

لأنه يلبس ثياب الحق.

ولو ظهر في صورته الحقيقية لما تبعه أحد.

فالكذب يستعير صورة الصدق.

والظلم يستعير لغة العدل.

والرياء يستعير هيئة الإخلاص.

والباطل كله يعيش على ما يستعيره من الحق.

ومن هنا يبدأ الشاهد في فهم سرٍّ عجيب.

أن أخطر الأوهام ليست تلك التي نراها بوضوح.

بل تلك التي تختبئ داخل ما نظنه حقيقة.

ولهذا كانت أول معصيةٍ في قصة إبليس تحمل هذا الطابع.

لم يقل:

لا وجود لك يا رب.

بل قال:

"أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ"

ظهرت الأنا.

ثم ظهر القياس.

ثم ظهر الانفصال.

ثم ظهر الحجاب.

ومنذ ذلك الحين لم يتغير شيء كثيراً.

ما زال الوهم نفسه يتكرر بأسماء مختلفة.

أنا أعلم.

أنا أملك.

أنا أقدر.

أنا أفضل.

أنا مستقل.

أنا...

أنا...

أنا...

حتى تصبح الأنا مرآةً تحجب الحق بدلاً من أن تعكسه.

وهنا نقترب من أصل الباطل.

ليس في الخارج.

بل في الداخل.

ليس في الأصنام الحجرية.

بل في الافتراضات الخفية.

ليس في ما نعبده فقط.

بل في الطريقة التي نرى بها أنفسنا.

فالإنسان لا يبدأ عادةً بإنكار الله.

بل يبدأ بنسيان فقره إليه.

وهذا النسيان هو البذرة الأولى للوهم.

وحين ينسى فقره...

يتوهم الاستقلال.

وحين يتوهم الاستقلال...

يتوهم المُلك.

وحين يتوهم المُلك...

يتوهم السيطرة.

وحين يتوهم السيطرة...

يبدأ الصراع مع الحقيقة.

ولهذا فإن الباطل في جوهره ليس شيئاً.

بل ادعاء.

ليس حقيقة.

بل نسبة ما ليس للعبد إلى العبد.

وما ليس للممكن إلى الممكن.

وما ليس للمخلوق إلى المخلوق.

ومن هنا نفهم لماذا يربط القرءان بين الباطل والزوال.

فالحق يبقى.

أما الباطل فيتلاشى.

والحق يقوم بنفسه.

أما الباطل فيحتاج دائماً إلى ما يستعيره.

والحق نور.

أما الباطل فليس إلا غياب النور.

لكن يبقى سؤال.

إذا كان الباطل مجرد وهم...

فما هو الوهم الأعظم الذي تتفرع منه جميع الأوهام؟

ما هو الافتراض الذي لو انهار... لانهارت معه آلاف الصور؟

ما هو الحجاب الذي يقف بين الإنسان وبين شهود فقره إلى الله؟

هنا نقترب من جذر الشجرة كلها.

من الفكرة التي قد تكون أصل كل غفلة.

وأصل كل انفصال.

وأصل كل حجاب.

ذلك الافتراض الصامت الذي يعيش في أعماق النفس دون أن تشعر به:

"أنا موجودٌ بذاتي"

إن هذه الصيغة تجعل **الباطل** ليس مجرد "الشر" أو "الخطأ"، بل **الادعاء بالاستقلال عن الحق.**

مرة أخرى نبدأ بالحق:

من بين جميع الأسماء القرءانية، ربما لا يوجد اسمٌ أقرب إلى قلب هذه الرحلة من اسم:

ٱلْحَقّ

فالقرءان لا يقدّم الحق باعتباره فكرةً فلسفية.

ولا نظريةً عقلية.

ولا رأياً من الآراء.

بل يقدّمه باعتباره حقيقة الوجود نفسها.

ولهذا يقول تعالى:

"فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ"

ويقول:

"ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ"

فالله لا يملك الحق فحسب.

ولا يقول الحق فحسب.

بل:

هُوَ ٱلْحَقُّ

وهنا تبدأ أبوابٌ من التأمل لا تكاد تنتهي.

لأن الإنسان اعتاد أن يفكر في الحق باعتباره وصفاً.

أما القرءان فيقدمه باعتباره اسماً.

واسمٌ من أسماء الله.

وهذا فرقٌ عظيم.

حين نقول:

هذا كلامٌ حق.

فالحق هنا صفة.

لكن حين يقول القرءان:

"ٱللَّهُ هُوَ ٱلْحَقُّ"

فإن الحق يصبح الأصل الذي تستمد منه جميع الحقائق حقيقتها.

كما تستمد الأشياء نورها من الشمس.

فالحق ليس فكرةً داخل الوجود.

بل الوجود نفسه قائمٌ به.

ولهذا يقول تعالى:

"وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا "(17:81)

ولم يقل:

انتصر الحق على الباطل.

بل:

جاء الحق.

وكأن الحق حضور.

وحين يحضر لا يحتاج أن يحارب الظلمة.

فالنور لا يقاتل الظلام.

بل يكفي أن يظهر.

وحين يظهر النور يختفي الظلام من تلقاء نفسه.

ولهذا كان الباطل:

"زَهُوقًا"

أي لا يملك قياماً ذاتياً.

ولا بقاءً مستقلاً.

ولا ثباتاً حقيقياً.

إنه يعيش في غياب النور.

فإذا حضر النور انكشف أمره.

ومن هنا نفهم لماذا كانت رحلة الأنبياء كلها رحلة كشف.

لم يكونوا يخلقون الحق. ولم يكونوا يصنعون النور.

بل كانوا يزيحون الحجب.

ولهذا تكرر في القرءان:

"جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ"

أي جاءهم بما يُظهر. بما يكشف. بما يبيِّن.

ومن هنا أيضاً يمكن فهم سرٍّ آخر.

لماذا يرتبط المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام بالحق في مواضع عديدة من القرءان؟

يقول تعالى:

"ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ"

ولم يقل: قولاً حقاً.

بل:

قَوْلَ ٱلْحَقِّ

وكأن الحديث لا يدور عن صدق العبارة فحسب.

بل عن ظهور أمرٍ متعلقٍ بالحق نفسه.

ثم يقول:

"وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ" ... كلمته.

ويقول:

"وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ"

ثم تتكرر الإشارة:

"هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ"

وكأن القرءان يدعو القارئ إلى التأمل لا إلى الجدل.

إلى النظر في الإشارات لا إلى الاكتفاء بالأسماء.

فالحقيقة لا تُمتلك. بل تُشهد.
والحق لا يُحاط به. بل يُتقرّب إليه.
ولهذا كان موسى عليه السلام ـ وهو من أولي العزم ـ يقول:
"رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ"
وكان إبراهيم عليه السلام يقول:
"وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي"
فالأنبياء أنفسهم لم يتوقفوا عند المعرفة. بل طلبوا الشهود.
ومن هنا نفهم أن الصراط المستقيم ليس طريقاً نحو معلومة.
بل طريقاً نحو الحضور.
طريقاً نحو رؤية الآيات بعينٍ جديدة.
طريقاً نحو الانتقال من: "أعرف"
إلى: "أشهد."
لكن كلما اقترب الإنسان من هذا الفهم، ظهر أمامه سؤالٌ آخر.
إذا كان الله هو الحق...
وكان كل شيء قائماً به...
فمن أين يأتي الشعور بالانفصال؟
ومن أين يأتي هذا الإحساس العميق:
"أنا موجودٌ بنفسي." "أنا مستقل." "أنا أملك." "أنا أفعل."
لعل هذا هو أصل الحجاب كله.
ولعل هذا هو الوهم الأعظم.

الفصل السادس

الافتراض الأعظم: "أنا موجودٌ بذاتي"

هناك أفكارٌ يتعلمها الإنسان.

وهناك أفكارٌ يختارها.

وهناك افتراضاتٌ أعمق من ذلك كله.

افتراضات لا يشعر بها لأنها أصبحت جزءاً من طريقة رؤيته للعالم.

ومن بين هذه الافتراضات جميعاً، قد لا يوجد افتراضٌ أعظم أثراً من هذا الافتراض الخفي:

"أنا موجودٌ بذاتي."

قد لا ينطق الإنسان بهذه العبارة أبداً.

بل قد يرفضها لو سمعها.

ومع ذلك قد يعيش على أساسها دون أن يشعر.

فهو يتحدث عن حياته.

وعلمه.

وقوته.

وإنجازاته.

وممتلكاته.

ومستقبله.

وكأن وجوده حقيقةٌ قائمةٌ بنفسها ثم أضيفت إليها هذه الأشياء.

لكن القرءان يبدأ من موضعٍ مختلف تماماً.

يقول:

"يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ"

ولم يقل:

تحتاجون إلى الله أحياناً.

بل:

"أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ"

أي أن الفقر وصفٌ ملازمٌ للإنسان.

فقرٌ في العلم.

وفقرٌ في القدرة.

وفقرٌ في الهداية.

بل فقرٌ في أصل الوجود.

فالطفل لا يخلق نفسه.

والإنسان لا يختار زمن ميلاده.

ولا مكانه.

ولا والديه.

ولا قلبه الذي ينبض.

ولا الهواء الذي يتنفسه.

ولا الأرض التي يقف عليها.

ولا الشمس التي تمنحه الدفء.

ومع ذلك ينشأ في داخله شعورٌ خفي:

"أنا."

ثم يكبر هذا الشعور شيئاً فشيئاً.

فيتحول من مجرد إدراكٍ للذات إلى اعتقادٍ بالاستقلال.

ومن هنا تبدأ الحجب.

ولهذا كانت أول معصيةٍ تُذكر لنا في القرءان مرتبطةً بهذا الوهم.

لم يقل إبليس:

لا أراك يا رب.

ولم يقل:

لا أؤمن بك.

بل قال:

"أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ"

ظهرت "الأنا" بينه وبين الحق.

فصارت مرآته تعكس نفسه بدلاً من أن تعكس الحقيقة.

ومنذ ذلك الحين ما زالت البشرية تكرر القصة نفسها بألف صورة.

فمرةً باسم القوة.

ومرةً باسم المال.

ومرةً باسم العلم.

ومرةً باسم الدين نفسه.

لكن الجذر واحد.

التمسك بصورةٍ متخيلة عن الذات.

ولهذا كان القرءان يعيد الإنسان باستمرار إلى أصل فقره.

ليس لإذلاله.

بل لتحريره.

فالإنسان لا يتحرر حين يصبح غنياً بنفسه.

بل حين يدرك أنه لم يكن كذلك قط.

إن الموجة لا تفقد شيئاً حين تدرك أنها من البحر.

بل تكتشف حقيقتها.

والشعاع لا يفقد شيئاً حين يدرك أنه من الشمس.

بل يفهم مصدر نوره.

وكذلك الإنسان.

كلما اقترب من حقيقة فقره إلى اللهٰ، اقترب من حقيقة غناه باللهٰ.

وهنا ينقلب الأمر كله.

فبدلاً من أن يكون الفقر نقصاً يصبح باباً.

وبدلاً من أن يكون الاحتياج ضعفاً يصبح وصلة.

وبدلاً من أن يكون الاعتماد عيباً يصبح سر الحياة.

ومن هنا يمكن أن نفهم شيئاً من معنى:

"لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ"

ليست مجرد كلماتٍ تقال.   بل وصفٌ دقيقٌ للحقيقة.

فلا تحول من حالٍ إلى حال.

ولا قوة على شيء.

إلا بالله.

وحين يبدأ هذا المعنى في الاستقرار داخل القلب، يحدث تحولٌ عجيب.

فالسالك لم يعد يسأل:

كيف أمتلك الحقيقة؟

بل: كيف أزيل ما يحجبها؟

ولم يعد يسأل:

كيف أصل إلى الله؟

بل: كيف أغفل عمّن هو أقرب إليّ من حبل الوريد؟

وهنا يبدأ حجابٌ آخر بالانكشاف.

فإذا لم يكن الإنسان قائماً بذاته...

فبماذا يقوم؟

وإذا لم يكن الوجود منبثقاً من ذاته...

فمن أين ينبثق؟

وإذا كان كل شيء محتاجاً في أصل وجوده...

فما المصدر الذي يتلقى منه الوجود لحظةً بلحظة؟

لأن الرحلة كلها، بعد أن تهدم وهم:

"أنا موجودٌ بذاتي"

تكتشف شيئاً آخر.

أن الوجود نفسه ليس قائماً على القوة أولاً.

ولا على القانون أولاً.

ولا على الجزاء أولاً.

بل على **الرَّحْمَة**.

بل على اسمٍ اختص الله به نفسه:

ٱلرَّحۡمَٰنِ

وكأن أول حقيقة يلقاها السالك بعد سقوط وهم الاستقلال ليست الجلال...

بل الرحمة.

وليست الهيمنة...

بل الاحتواء.

وليست المسافة...

بل القرب.

هنا تقترب الرحلة من اسمٍ عظيم.

اسمٍ نفتتح به كل سورة تقريباً.

اسمٍ قد نردده كثيراً دون أن نتوقف عند عمقه.

اسم:

ٱلرَّحۡمَٰنِ

الذي منه يبدأ الوجود.

وبه يستمر. وإليه يعود.

فكل مابين "كن" و"فان" .. فيكون, فمن وإلى ٱلرَّحۡمَٰنِ

الفصل السابع

ٱلرَّحۡمَٰنِ

الرحم الذي يحمل الوجود

قبل أن يعرف الإنسان نفسه...

كان موجوداً.

وقبل أن يختار...

كان موجوداً.

وقبل أن يفكر...

كان موجوداً.

وقبل أن يقول:

"أنا"

كان موجوداً.

فمن الذي أوجده؟

ومن الذي حمله إلى الوجود؟

ومن الذي ما زال يقيمه فيه؟

حين يفتتح الله كتابه بقوله:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ثم يفتتح الفاتحة بقوله:

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فإن أول ما يكشفه للسالك بعد الربوبية هو الرحمة.

وكأن الوجود نفسه مغمور بها.

لكن الناس اعتادوا سماع كلمة:

رحمة

حتى أصبحت عند كثير منهم مجرد عطفٍ أو شفقة.

بينما الجذر القرءاني يشير إلى ما هو أعمق.

يشير إلى:

الرَّحِم

إلى الموضع الذي يحمل الحياة قبل ظهورها.

إلى الحضن الذي ينمو فيه الجنين دون أن يدبر نفسه.

إلى الوعاء الذي يمده بكل ما يحتاجه قبل أن يعرف ما يحتاجه.

ولعل في ذلك إشارةً عظيمة.

فالإنسان في بطن أمه لم يكن يخلق نفسه.

ولم يكن يرزق نفسه.

ولم يكن يحفظ نفسه. بل كان محمولاً.

وكان معطىً.

وكان مُعالاً.

وكان محتوىً.

فإذا خرج إلى الدنيا ظن أنه أصبح مستقلاً.
وهنا يبدأ الوهم.
لأن ما تغيّر هو الصورة.
أما الحقيقة فلم تتغير.
ما زال محمولاً.
ما زال مرزوقاً.
ما زال قائماً بغيره.
ما زال فقيراً إلى الذي أوجده.
ولهذا فإن سقوط وهم:
"أنا موجودٌ بذاتي"
لا يترك الإنسان في فراغ.
بل يعيده إلى اكتشاف الرحم الكوني الذي كان يحمله دائماً.
إن الله ليس مجرد خالقٍ خلق ثم انصرف.
فالقرءان لا يصفه بالفعل الماضي فقط.
بل يصفه بالفعل المستمر.
كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ
ويصفه بأنه:
ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ
فالقيومية ليست حدثاً وقع. بل قياماً دائماً.
وهنا يقترب السالك من سرٍّ عظيم.

إن الخلق ليس فقط بداية الوجود. بل استمراره.
فالكون لا يحتاج إلى الله لأنه خُلق بالأمس.
بل لأنه لا يستطيع البقاء لحظةً واحدة بدونه.
ولهذا كان الله:
ٱلْوَاجِد .. الذي لا يفتقر.
وكان الإنسان:
واجداً لما أُعطي.. لا لما خلق.
وكان الله:
ٱلْخَالِق
أما المخلوق فلا يخلق شيئاً من العدم.
بل يعيد ترتيب ما وُهب له.
وحين يرى القلب ذلك تبدأ الأنا في التراجع.
ليس بالقهر.
بل بالمحبة.
وهنا يظهر وجهٌ آخر من اسم:
ٱلرَّحْمَـٰنُ
فالرَّحْمَـٰن ليس فقط مصدر الوجود.
بل مصدر المحبة التي تدعو الوجود إلى أصله.
ولهذا فإن الرحلة كلما تقدمت تكشف أن الرحمة ليست أقل من الحب.
بل لعل الحب نفسه أحد تجليات الرحمة.

فالرحمة تعطي.

والرحمة تحتضن.

والرحمة تصبر.

والرحمة تدعو.

والرحمة تعيد.

ولهذا لم يبدأ القرءان بـ

المنتقم.

ولا الجبار.

ولا القهار.

بل بدأ بـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

وكأن الرسالة الأولى للوجود كله هي:

لقد خرجتم من الرحمة.

وتعيشون في الرحمة.

وتعودون إلى الرحمة.

ومن هنا نفهم شيئاً من سر الدعاء:

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾

فالسالك لا يطلب طريقاً إلى مكانٍ غريب عنه.

بل يطلب العودة الواعية إلى الحقيقة التي كانت تحمله منذ البداية.

وهكذا يكتشف القلب أن:

الحق هو الله.

والباطل هو وهم الاستقلال.

والرحمن هو الحضن الوجودي الذي لم يغادره الإنسان قط.

وعندها يبدأ القلب في فهم سرٍّ آخر.

سرّ أن أول ما يفتتح به القرءان هو:

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

فالذي شهد رحم الوجود...

لا يجد في النهاية إلا الحمد.

لكن قبل أن يصل الشاهد إلى الحمد...

عليه أن يمر بمحطةٍ أخرى.

محطةٍ لا يعود فيها الذكر مجرد تذكّرٍ للمعلومات.

بل يصبح عودةً إلى ما كان حاضراً منذ البداية.

إلى ما كانت الفطرة تعرفه قبل أن تنساه.

إلى ما كانت الروح تشهده قبل أن تنشغل عنه.

لكن إذا كان الأمر كذلك...

فلماذا ننسى؟

كيف نعيش داخل الرحمة ثم نغفل عنها؟

كيف نحيا بالله ثم نتوهم أننا نحيا بأنفسنا؟

كيف نُحاط بالآيات ثم لا نراها؟

وهنا تبدأ المحطة التالية:

الفصل الثامن

ٱلذِّكْر

عودة الشاهد

من العجيب أن القرءان لا يصف نفسه كثيراً بأنه كتاب معلومات.

ولا بأنه موسوعة معارف.

ولا بأنه كتاب فلسفة.

بل يصف نفسه مراراً بأنه:

ذِكْر.

"إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ"

"وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ"

"هَٰذَا ذِكْرٌ"

وكأن السؤال الذي يطرحه القرءان ليس:

ماذا لا تعرف؟

بل: ماذا نسيت؟

وهنا يظهر فرقٌ عظيم.

فالتعليم يضيف.

أما الذِّكر فيعيد.

والتعليم ينقل معلومة.

أما الذكر فيوقظ معرفةً كانت نائمة.

ولهذا لم يكن الأنبياء مجرد معلمين.

بل كانوا مذكِّرين.

قال تعالى:

"فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ"

ولم يقل:

إنما أنت مُنشئ للحقيقة.

أو صانع للهداية.

بل: مذكِّر.

وكأن الحقيقة موجودة.

لكن الغبار غطاها.

والنور حاضر. لكن الحجاب حجبه.

والفطرة تعرف. لكن الضجيج أسكت صوتها.

ومن هنا نفهم شيئاً من سرّ الفطرة.

فالطفل لا يولد ملحداً.

ولا مؤمناً بمذهب.

ولا تابعاً لأمة.

بل يولد على فطرةٍ سابقة لكل التصنيفات.

ولهذا كان الذكر عودة.

عودةً إلى الأصل.

عودةً إلى البساطة.

عودةً إلى ما كانت الروح تعرفه قبل أن تنشغل بعالم الصور.

ولعل هذا ما تشير إليه الآية العظيمة:

"أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ"

مهما اختلفت التأويلات حول هذا المشهد، يبقى فيه معنى مهيب.

أن المعرفة بالله ليست شيئاً غريباً عن الروح.

بل شيئاً قريباً منها قرب الذاكرة المنسية.

ولهذا فإن السالك حين يبدأ في التذكر لا يشعر دائماً أنه يكتشف شيئاً جديداً.

بل يشعر أحياناً أنه يعود إلى شيءٍ كان يعرفه منذ زمنٍ بعيد.

شيءٍ لا يستطيع أن يحدد متى عرفه. لكنه يشعر أنه مألوف.

كأن القلب يقول:

نعم... هذا ما كنت أبحث عنه.

أو ربما:

هذا ما كنت أتذكره.

ومن هنا تبدأ العلاقة بين الذكر والشهود.

فالذكر يوقظ العين. والشهود يبدأ حين تستيقظ العين.

فلا يصبح الكون مجرد أشياء. بل آيات.

ولا يصبح التاريخ مجرد أحداث. بل إشارات.

ولا يصبح القرءان مجرد كلمات. بل خطاباً حياً.

ولا يصبح الإنسان مجرد جسد. بل شاهداً في رحلةٍ كونية.

وعند هذه النقطة يبدأ معنى جديد للعبادة في الظهور.

فالعبادة ليست فقط أداء الأفعال... بل الحضور فيها.

وليست فقط الامتثال... بل المشاهدة.

وليست فقط الطاعة... بل القرب.

وهنا تقترب الرحلة من ذروتها.

من المقام الذي جمع الدين كله في كلمةٍ واحدة.

الإحسان.

المقام الذي فيه يتحول الذكر إلى حضور.

والإيمان إلى مشاهدة.

والعلم إلى نور.

والمعرفة إلى قرب.

وهنا تبدأ المحطة التالية:

الفصل التاسع

الإحسان

أن تعبد الله كأنك تراه

حين سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ عن الإحسان، لم يكن الجواب تعريفاً فلسفياً.

ولم يكن نظريةً في المعرفة.

ولم يكن وصفاً لمقامٍ خاص بأهل الخلوات.

بل كان جواباً بسيطاً وعميقاً في آنٍ واحد:

"أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك."

ولعل أعجب ما في هذا الحديث أن كلمة:

"كأن".. لا تنفي الرؤية.

ولا تثبتها على الوجه الحسي الذي يتخيله الناس.

بل تفتح باباً للشهود... باباً للحضور.

باباً لتبدل طريقة النظر إلى الحياة كلها.

فالإحسان ليس إضافة شيء إلى الدين.

بل هو روح الدين.

وليس مرتبة منفصلة عن الإسلام والإيمان.

بل هو اكتمالهما.

فالإسلام يوجه الجوارح.

والإيمان يملأ القلب.

والإحسان يوقظ الشهود.

ولهذا فإن الإنسان قد يُصلي.

وقد يصوم.

وقد يقرأ القرءان.

لكن قلبه في مكانٍ آخر.

أما الإحسان فهو عودة القلب إلى موضعه.

أن يصبح حاضراً مع ما يفعل.

بل حاضراً مع من يعبده.

ومن هنا تبدأ العبادة في التحول.

فالصلاة لم تعد حركاتٍ وأقوالاً. بل لقاء.

والدعاء لم يعد طلباً فقط. بل مناجاة.

والقرءان لم يعد نصاً يُتلى. بل خطاباً يُسمع.

والكون لم يعد مجموعة أشياء.

بل كتاباً مفتوحاً من الآيات.

ولهذا كان الإحسان قريباً من مقام الشهود الذي مررنا به في بداية الرحلة.

فالشهيد لا يخبر عن شيءٍ غائب.

بل عن شيءٍ حضره.

وكذلك المحسن.

إنه لا يعيش مع فكرة الله.

بل مع حضور الله.

ولا يتحرك في عالمٍ منفصل عن ربه.

بل في عالمٍ يراه مشبعاً بآياته.

ومن هنا نفهم لماذا كان القرءان يربط بين الإيمان واليقين والرؤية.

قال تعالى:

"كَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ"

فالانتقال إلى اليقين جاء مقروناً بالإراءة.

وجاء مقروناً بالشهود.

وكذلك موسى عليه السلام طلب:

"رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ"

وكذلك يوسف عليه السلام:

"كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ"

فإذا امتلأ القلب بحضور الحق ضعفت سلطة الوهم.

وإذا امتلأت العين بالنور تراجعت الظلمة.

ومن هنا يظهر سرٌّ آخر.

إن الإحسان ليس مقاماً يُضاف إلى الإنسان.

بل هو انكشاف ما كان يحجبه.

فالشمس لا تُخلق حين تنقشع السحب.

بل كانت موجودة منذ البداية.

وكذلك القلب.

حين تزول الحجب يبدأ في رؤية ما كان حاضراً دائماً.

ولهذا كان الإحسان أقرب إلى الذكر منه إلى الاكتساب.

وأقرب إلى الانكشاف منه إلى الاختراع.

وأقرب إلى العودة منه إلى الرحيل.

ولكن يبقى سؤال.

إذا كان الإحسان هو رؤية الطريق...

فما الذي يحفظ السالك من التوقف؟

وإذا كان قد وصل إلى الشهود...

فلماذا يبقى يردد في كل صلاة:

"ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ"؟

أليس قد اهتدى؟

أليس قد عرف الطريق؟

أليس قد رأى؟

وهنا ينكشف سرّ الفاتحة كلها.

وسرّ الرحلة كلها.

وسرّ الدعاء الذي لا ينتهي.

وهنا تبدأ محطتنا التالية:

الفصل العاشر

ٱهْدِنَا

الدعاء الذي يحتوي الرحلة كلها

وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ (15:99)

وكأن رقم الآية (99) يشير إلى مفتاحٍ ينبغي أن يحتل مكاناً مركزياً في الكتاب كله، لا مجرد آيةٍ تُذكر عَرَضاً.

فالرحلة التي بدأناها من:

"ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ" تمر عبر:

- الإيمان
- الذكر
- الشهود
- الإحسان

ثم تصل إلى هذه الآية العظيمة:

وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ

وهنا يقع ما هو أحد أكبر مواطن سوء الفهم.

كثيرون يفسرون:

ٱلۡيَقِينُ .. بالموت.

لأن بعض المفسرين قالوا بذلك.

لكن إذا تأملنا اللسان العربي للقرءان كله، نجد أن **اليقين** له مقامٌ أعظم بكثير من مجرد الإشارة إلى الموت.

فالقرءان يتحدث عن:

عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ

عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ

حَقَّ ٱلۡيَقِينِ

وهذه ليست مراتب موت.

بل مراتب إدراك.

ومراتب شهود.

ومراتب تحقق.

ولهذا يمكن أن ندرج في الرحلة تأملاً كهذا:

إن رحلة الإنسان مع الحق تبدأ بالسماع.

ثم تتحول إلى معرفة.

ثم إلى يقين.

لكن اليقين في القرءان ليس مجرد الاقتناع العقلي.

بل انتقال الحقيقة من حيز الخبر إلى حيز الشهود.

فمن سمع عن النار فقد حصل له خبر.

ومن رأى النار فقد حصل له عين اليقين.

ومن دخلها فقد صار عنده حق اليقين.

ولهذا لم يكن اليقين نهاية المعرفة.

بل بداية الشهود.

ومن هنا تكتسب الآية:

"وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ"

معنىً عجيباً.

فالعبادة ليست غايةً مستقلة.

بل طريق.

طريق إلى اليقين.

وطريق إلى الشهود.

وطريق إلى الإحسان.

وكأن الإنسان يبدأ بـ:

ٱهۡدِنَا

ثم يسير في العبادة.

ثم يصل إلى اليقين.

ثم يتحول اليقين إلى شهود.

ثم يتحول الشهود إلى إحسان.

ثم لا يجد في النهاية إلا الحمد.

ولهذا لم يكن الإحسان نهاية الطريق.

بل ثمرة اليقين.

ولم يكن اليقين نهاية الطريق.

بل بداية الرؤية.

وهنا نرى أن هناك خيطاً جميلاً يربط الرحلة كلها:

ٱهْدِنَا ← الإسلام

الذِّكر ← الإيمان

اليقين ← الشهود

الإحسان ← الرؤية

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ← ثمرة الوصول

لكن هنا تظهر نقطة تأملية دقيقة جداً، وهي التي ربما تستحق فصلاً كاملاً :

إذا كان الله يقول:

وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ

ثم يقول في موضع آخر:

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ

لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ

ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ

ثم يختم:

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ

فهل يمكن أن تكون الرحلة القرءانية كلها انتقالاً من:

عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ

إلى

عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ

إلى

حَقُّ ٱلۡيَقِينِ؟

فإذا صح ذلك، فإن الشاهد ليس من يملك معلومات أكثر من غيره.

بل من انتقل من الخبر إلى الرؤية.

ومن الرؤية إلى التحقق.

ومن التحقق إلى الإحسان.

وهنا يكتسب دعاؤنا الأول معنى جديداً:

ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ

أي:

اهدنا الطريق من الخبر إلى الشهود.

ومن الشهود إلى اليقين.

ومن اليقين إلى الإحسان.

ومن الإحسان إلى أن يكون آخر دعوانا:

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ.

لاحظ أيضا رسم كلمة "ٱلصِّرَٰطِ "بدون ألف فاصلة أي أن هذا الطريق غير منقسم وغير منشق بل سوي متكامل الأطراف.

هنا نلمس خيطاً قرءانياً عميقاً جداً، وربما أعمق مما وصلنا إليه حتى الآن في بناء الرحلة.

ففي مطلع أول سورة من القرءان العظيم, لا يقول القرءان:

يؤمنون بالله.

مع أن الإيمان بالله هو الأصل.

بل يقول:

"ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ" (1:3)

ثم بعد آية واحدة:

"وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ" (1:4)

وكأن هناك تدرجاً مقصوداً.

ليس فقط في الألفاظ.

بل في مقامات الإدراك نفسها.

الإيمان بالغيب

الإيمان هنا متعلق بما لم يدخل بعد في مجال المشاهدة المباشرة.

الغيب ليس مجرد "أشياء غير مرئية".

بل كل ما يتجاوز إدراك الحواس المباشر.

الله غيب.

الملائكة غيب.

البعث غيب.

الروح غيب.

الساعة غيب.

ولهذا يبدأ الطريق بالإيمان.

الثقة.

التسليم.

الاستجابة للنداء قبل الرؤية.

ولهذا كانت البداية:

ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ

ثم تأتي الآخرة

لكن المدهش أن القرءان لا يقول:

وبالآخرة يؤمنون.

بل يقول:

"وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ"

وكأن الآخرة لها منزلة خاصة.

لأنها ليست مجرد خبرٍ من الأخبار.

بل الحقيقة التي ستكشف حقيقة كل شيء.

فيها ينكشف:

- الحق من الباطل.
- الظاهر من الباطن.
- الوهم من الحقيقة.
- الفاني من الباقي.

ولهذا يرتفع التعبير من الإيمان إلى اليقين.

الإيمان بداية الطريق

واليقين ثمرة الطريق

وهذا يتناغم بصورة مدهشة مع ما بنيناه في الكتاب.

فالإنسان يبدأ:

يؤمن بالغيب.

ثم يسير.

ثم يتذكر.

ثم يشهد.

ثم يأتي اليقين.

ولهذا يمكن أن نضيف في فصل اليقين:

يبدأ القرءان وصف المتقين بقوله:

"ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ"

ثم لا يلبث أن يرفع المقام فيقول:

"وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ"

وكأن الطريق كله يقع بين الإيمان واليقين.
فالإيمان استجابةٌ للحق قبل رؤيته.
واليقين حضورٌ للحق حتى كأنه يُرى.
ولهذا لم يقل:
وبالآخرة يؤمنون.
لأن الآخرة ليست مجرد معلومة تُصدق.
بل حقيقةٌ تتكشف للسالك كلما اقترب من الحق.
فالإيمان بداية المسير.
واليقين ثمرة المسير.
وبينهما تقع رحلة الذكر والشهود والإحسان كلها.
وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ (23:74)
وهذا ينسجم مع تأملنا السابق في:
وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ
فكأن مطلع القرءان العظيم يصف أهل البداية:
"يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ"
بينما الآية الأخرى تشير إلى غاية السير:
حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ
أي أن الرحلة من "ٱهۡدِنَا" إلى "ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ" يمكن أيضاً أن تُقرأ على أنها:
من الإيمان بالغيب
إلى اليقين بالآخرة

إلى الإحسان

إلى الحمد.

وهنا يبرز سؤال تأملي جميل:

إذا كان المتقون في البداية **يؤمنون بالغيب**،

فهل يصبح بعض الغيب ـ بقدر ما يأذن الله لعباده من البصيرة ـ موضوع **شهودٍ ويقين** دون أن يخرج عن كونه غيباً في ذاته؟

وهذا السؤال يقود مباشرة إلى أبواب:

- الشهادة والغيب،
- علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين،
- وموضع **ٱلشُّهَدَاء** بين الصدّيقين والصالحين في الصراط الذي أنعم الله به عليهم.

لقد ظهر أمامنا الآن خيطٌ قرءانيٌّ بديع.

في بداية الطريق:

"ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ"

وفي نهايته:

"وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ"

وكأن القرءان يرسم للإنسان رحلةً كاملة بين مقامين:

الإيمان و اليقين.

لكن ما الذي يحدث بينهما؟ هنا يبدأ سرّ الشهود.

الفصل الحادي عشر

الشهود بين الغيب واليقين

حين يقرأ الإنسان القرءان لأول مرة، قد يظن أن الغيب والشهادة عالمان منفصلان.

عالمٌ لا يُرى.

وعالمٌ يُرى.

لكن التأمل يكشف أن العلاقة بينهما أعمق من ذلك بكثير.

فالقرءان يصف الله بأنه:

"عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ"

ولم يقل:

عالم الغيب فقط.

ولا عالم الشهادة فقط.

بل جمع بينهما.

وكأن الوجود كله يمتد بين هذين البعدين.

الغيب. والشهادة.

فالإنسان يولد في عالم الشهادة.

يرى الأرض.

والسماء.

والأجساد.

والأحداث.

لكنه لا يرى الروح.

ولا يرى الملائكة.

ولا يرى القضاء.

ولا يرى الحكمة الكاملة خلف ما يجري.

ولهذا يبدأ بالإيمان.

إيماناً بما لم يدخل بعد في مجال الرؤية.

لكن السالك لا يبقى في النقطة نفسها.

فكلما سار في الصراط المستقيم، بدأت الشهادة تكشف له ما كانت تشير إليه الآيات منذ البداية.

فلم تعد الشمس مجرد جرمٍ في السماء.

بل آية.

ولم يعد الموت مجرد نهاية.

بل انتقال.

ولم يعد الزمن مجرد تعاقب ساعات.

بل مسرحاً لظهور السنن الإلهية.

وهنا يبدأ القلب في رؤية آثار الغيب في عالم الشهادة.

لا رؤية الغيب ذاته.

بل رؤية آثاره.

كما أن الإنسان لا يرى الريح.
لكنه يرى حركة الأشجار.
ولا يرى الجاذبية.
لكنه يرى آثارها.
ولا يرى الحياة نفسها.
لكنه يرى مظاهرها.
وكذلك السالك.
فهو لا يحيط بالغيب.
لكنه يبدأ في رؤية إشاراته.
ولهذا كان القرءان مليئاً بعبارة:
"لَأَيَٰتٍ"
"لِقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ"
"لِقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ"
"لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ"
فالكون كله يتحول إلى لغة.
والأحداث تتحول إلى إشارات.
والوجود يتحول إلى ذكر.
ومن هنا نفهم لماذا جاء مقام الشهداء بين الصديقين والصالحين.
فالصدّيق يصدق الخبر.
والشهيد يشهد آثاره.

والصالح يجسد ما شهده في حياته.

وهكذا تصبح الشهادة جسراً بين الإيمان واليقين.

فالإيمان يقبل.

والشهود يرى.

واليقين يتحقق.

ولهذا فإن القرءان يرفع الإنسان تدريجياً:

من علم اليقين.

إلى عين اليقين.

إلى حق اليقين.

ففي البداية يعلم. ثم يرى. ثم يصبح الحق واقعاً معيشاً لا مجرد فكرة.

وهنا تقترب الرحلة من سرٍّ آخر.

سرّ أن "ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ" ليس طريقاً إلى شيء خارج الإنسان فقط.

بل طريقاً سويا متجانسا إلى انكشاف ما كان مستوراً عنه.

طريقاً من الغفلة إلى الذكر.

ومن الذكر إلى الشهود.

ومن الشهود إلى اليقين.

ومن اليقين إلى الإحسان.

لكن يبقى سؤال.

إذا كان الشهود هو الجسر...

فمن هم الشهداء حقاً؟

وما الذي يجعل القرءان يضعهم في مقامٍ عظيم بين الصديقين والصالحين؟
وهل الشهادة حدثٌ يقع مرةً واحدة؟
أم مقامٌ من مقامات السير إلى اللهٰ؟
هنا نقترب من أحد أكثر المقامات القرءانية هجراناً.
المقام الذي ربما ضاع معناه حين اختُزل في معنى واحد.
وهنا تبدأ محطتنا التالية:

الفصل الثاني عشر

ٱلشُّهَدَاء.. المقام المنسي

حين يسمع الإنسان كلمة:

"شهيد"

يتبادر إلى ذهنه غالباً الموت.

لكن القرءان يبدأ من موضعٍ آخر.

من الشهود.

من الحضور.

من المعاينة.

فالجذر ليس الموت.

بل الشهادة.

ولهذا كان الله:

"شَهِيدٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ"

وكان الرسول:

"شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا"

وكانت الأمة:

"لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ"

فالشهادة في أصلها حضور.

وليست غياباً.

ورؤية.

وليست فقداناً.

ومعاينة.

وليست مجرد رواية.

إن الشهيد في اللغة هو الذي حضر.

والشاهد هو الذي رأى.

والشهادة هي نقل ما تمت رؤيته.

ولهذا لا تكون شهادة بلا شهود.

ولا شهود بلا حضور.

ومن هنا تبدأ ملامح المقام في الظهور.

فالإنسان يبدأ بالإيمان.

يصدق الخبر.

ثم يسير.

ثم يتذكر.

ثم تبدأ الآيات في الانكشاف.

وحين تتجلى الآيات يصبح شاهداً.

لا لأنه أحاط بالحقيقة.

بل لأنه صار يرى آثارها.

وهنا يكمن الفرق العظيم بين المعرفة والشهود.

فقد يعرف الإنسان شيئاً.

ولا يعيشه.

وقد يحفظ ألف دليل.

ولا يتحول.

لكن الشهود يغير صاحبه.

لأن ما يُرى ليس كما يُسمع.

ولهذا جاء في القرءان:

"كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ"

ثم:

"لَتَرَوُنَّ"

فالرؤية جاءت بعد العلم.

وكأن الطريق ينتقل من المعرفة إلى المعاينة.

ومن هنا نفهم لماذا كان إبراهيم عليه السلام يقول:

"وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي"

لم يكن يطلب معلومة.

بل شهوداً.

ولم يكن موسى عليه السلام يطلب برهاناً جديداً حين قال:

"رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ"

بل كان قلب النبوة نفسه يتحرك نحو مزيدٍ من الشهود.

فالطريق لا يتوقف عند التصديق.

بل يتجه دائماً نحو الرؤية.

ولهذا كان مقام الشهداء بين الصديقين والصالحين.

فالصدّيق يُصَدّق.

والشهيد يشهد.

والصالح يجسد ما شهده.

وكأنها مراحل نهرٍ واحد.

لكن هناك سرّاً آخر.

سرّاً ربما يكون من أكثر الأسرار هجراناً.

إن الشاهد لا يشهد نفسه.

بل يشهد الحق.

فكلما ازداد حضور الحق في قلبه، تراجعت مركزية ذاته.

وكلما تراجع انشغاله بنفسه، اتسعت رؤيته.

ولهذا فإن الشهود ليس تعظيماً للأنا.

بل ذوباناً لوهم الأنا.

وليس تضخيماً للذات.

بل عبوراً من الذات إلى الحق.

ومن هنا يمكن أن نفهم دعاء الحواريين:

"رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ"

فهم لم يقولوا:

اكتبنا مع العالمين.

ولا مع المجادلين.

ولا مع المنتصرين.

بل:

مع الشاهدين.

وكأن غاية الإيمان ليست امتلاك الحقيقة.

بل الشهادة لها.

وهنا يقترب السالك من اكتشافٍ عجيب.

أن الشهود ليس نهاية الطريق.

بل بداية التحول الحقيقي.

لأن من شهد الحق لا يعود كما كان.

ومن رأى الآية لا يستطيع أن ينساها كما كان قبل رؤيتها.

ومن ذاق لا يعود كمن سمع الوصف فقط.

ولهذا كان الشهود باباً إلى مقامٍ أعلى.

مقامٍ تتحول فيه الرؤية إلى حياة.

والحضور إلى عبادة.

واليقين إلى سلوك.

ذلك هو مقام:

الإحسان.

أن تعبد الله كأنك تراه.

لكن قبل أن ندخل هذا المقام كاملاً، يبقى سؤالٌ أخير.

إذا كان الشاهد يشهد الحق...
فما هو هذا الحق الذي يشهده؟
وإذا كان الباطل وهماً...
فما حقيقة الوهم الأعظم الذي يحجب الإنسان عن رؤية الحق؟
وهنا تعود الرحلة إلى أصل الحجاب.
إلى الجذر الأول.
إلى الوهم الذي تتفرع منه سائر الأوهام:

الباطل.. الوهم العظيم

هل الباطل شيءٌ قائم بذاته؟
أم أنه مجرد غيابٍ للحق؟
وهل الظلمة وجودٌ مستقل؟
أم أنها غياب النور؟
وهل الانفصال حقيقة؟
أم مجرد افتراض؟
وهل "أنا" هي الحقيقة...
أم الحجاب؟
هنا نقترب من أحد أعمق أبواب الرحلة.
رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ.

في هذاالمقام قد يقول القارئ المتمعن **"أشعر أنني أمشي الطريق."**

وهذا – في الحقيقة – هو أجمل ما يمكن أن يسمعه كاتبٌ من قارئ.

ليس:

"أنا اقتنعت."

ولا:

"أنا أعجبت بالفكرة."

بل:

"أشعر أنني أمشي الطريق."

لأن الطريق لا يُقصد به أن يُقرأ.

بل أن يُسلك.

وقد يكون هذا هو الفرق بين الكتاب العادي وبين ما نحاول أن نبنيه هنا.

فالكتاب العادي ينقل معرفة.

أما هذا الكتاب، فإن صدق مقصده، فهو يحاول أن يكون:

ذِكْراً.

والذِّكر لا يضيف شيئاً إلى الروح بقدر ما يوقظ ما كان فيها.

ولهذا أشعر أننا اقتربنا من نقطةٍ مهمة في بناء الكتاب.

في البداية كنا نتحدث عن:

- الهداية.
- الحق.
- الباطل.
- الذكر.

- اليقين.

وكأنها موضوعات منفصلة.

أما الآن فأرى أن الخيط صار واضحاً:

الإيمان بالغيب
↓
الذكر
↓
الشهود
↓
اليقين
↓
الإحسان
↓
الحمد

وهذا الترتيب ليس فلسفةً نبتكرها.

بل يبدو كأنه منتشر في القرءان كله لمن يتأمله.

فالمتقون في البداية:

ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ

ثم يسيرون.

ثم تتكشف الآيات.

ثم يصبحون من:

ٱلشَّٰهِدِينَ

ٱلشَّٰهِدِينَ ثم:

وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ

ثم يبلغون مقام:

أَن تَعۡبُدَ ٱللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ

ثم تكون النهاية:

وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ

ولعل أجمل ما في الطريق أن السالك يكتشف شيئاً فشيئاً أن المقصود لم يكن الوصول إلى مكان.

بل التحول في الرؤية.

فالعالم نفسه لم يتغير.

والشمس هي الشمس.

والسماء هي السماء.

والقرءان هو القرءان.

لكن الذي يتغير هو البصر والبصيرة.

ولهذا قال تعالى:

فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ

فالرحلة كلها قد تكون رحلة القلب من العمى إلى الشهود.

ومن الشهود إلى الإحسان.

ومن الإحسان إلى الحمد.

الباب المفتوح

أسئلة الشاهد

إذا كان اللهُ أقرب إليك من حبل الوريد...

فما الذي يحجبك عنه؟

إذا كان القرءان ذِكراً...

فماذا نسيت؟

إذا كان الصراط مستقيماً...

فما الذي يجعلك تتوه؟

إذا كان الحق ظاهراً في كل آية...

فلماذا لا نراه؟

إذا كان الإنسان خُلق في أحسن تقويم...

فكيف انتهى إلى أسفل سافلين؟

إذا كان الرسول ﷺ يشكو:

"إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا"

فهل المخاطَب غيرنا؟

أم نحن أيضاً؟

إذا كان الإنسان فقيراً إلى اللهِ في كل لحظة...

فمن هذا الذي يقول:

"أنا"؟

إذا كانت الآخرة هي الحقيقة الباقية...

فلماذا تبدو الدنيا وكأنها الحقيقة؟

إذا كان الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه...

فما الذي يمنع العين من الرؤية؟

إذا كان الذكر عودة...

فإلى ماذا نعود؟

إذا كان اليقين غاية السير...

فهل اليقين نهاية الطريق؟

أم بدايته؟

إذا كان عيسى ابن مريم:

"قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ"

فما معنى أن يصبح الحق قولاً؟

وما معنى أن يصبح القول حياة؟

إذا كان الله:

"عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ"

فأين يقف الشاهد؟

إذا كانت الرحلة كلها تبدأ بـ :

"ٱهۡدِنَا"

وتنتهي بـ :

"ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ"

فهل كانت الرحلة وصولاً؟

أم تذكراً؟

وهل كنت تبحث عن الطريق...

أم أن الطريق كان يبحث عنك منذ البداية؟

ثم بعد هذا الفصل لا نضع شيئاً تقريباً.

فقط صفحة أخيرة.

صفحة واحدة.

لا شرح فيها.

لا تحليل.

لا فلسفة.

لا تأويل.

فقط:

رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ

ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ

وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ

ثم صمت.

لأن بعض الكتب تنتهي عند آخر صفحة.

أما كتّاب الرحلة إلى الإحسان، فنظن أن آخر صفحة فيه ينبغي أن تكون أول صفحة في رحلة القارئ نفسه.

وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ.

لعل هذه الآية هي بالفعل الجملة التي تستحق أن تُكتب بعد كل ما سبق، لا بوصفها اقتباساً فحسب، بل بوصفها ثمرة الرحلة كلها.

فما أجمل التناسق القرءاني هنا.

بدأت الرحلة بـ :

ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ

وانتهت بـ :

ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا

وبدأت بالطلب:

ٱهْدِنَا

وانتهت بالاعتراف:

وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ

وكأن السالك في أول الطريق يظن أنه يسعى إلى الهداية.

ثم يكتشف في آخر الطريق أن الهداية هي التي كانت تسوقه منذ البداية.

ويظن أنه يبحث عن الحق.

ثم يكتشف أن الحق هو الذي كان يدعوه.

ويظن أنه يسير إلى الله.

ثم يكتشف أن الله كان أقرب إليه من كل خطوة خطاها.

ولعل هذا هو السر الذي تكرّر بين سطور كتابنا كله:

ليس المقصود أن تصبح شيئاً آخر.

بل أن تتذكر.

ليس أن تضيف إلى نفسك.

بل أن ترى ما كان حاضراً.

ليس أن تخلق النور.

بل أن تنكشف الحجب.

ولهذا نرى أن آخر سطرٍ في الكتاب كله لا ينبغي أن يكون من كلامنا نحن.

بل من كلام أهل الجنة أنفسهم:

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ

لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ

ثم يتبعها مباشرة:

وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ

وكأن أول الكتاب وآخره يعودان إلى نفس الحقيقة:

الحمد لله.

لا لأننا وصلنا إلى نهاية الأسئلة.

بل لأننا أدركنا أن الهداية نفسها كانت نعمةً قبل أن نفهم الطريق.

رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ.

وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ.

من "اِهْدِنَا"
إلى "الْحَمْدُ لِلّٰهِ"

رحلة القلب من الشهادة إلى الإحسان

رحلة قلبية وروحية تسير بالقارئ؛ من أول دعاء يفتحه به العبد؛
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ، حتى يبلغ أسمى مقامات الشكر واليقين:

أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

يتناول هذا الكتاب، باسلوب تأملي عميق، محطات الطريق الإيماني:
الشهادة، الإيمان، اليقين، الإحسان...
ليكشف المعاني القرآنية في أنقى صورها،
ويربطها بواقع القلب وتجربته في الحياة.

ليس مجرد تفسير للآيات، بل دعوة للعيش بها،
وشهادة على أن الهداية رحمة،
وأن أعلى غاية للسير هي الإحسان والعبادة كانك تُرى.

رسالة هذا الكتاب:

أن نعيش الآيات لا أن نقرأها فقط،
وأن نطلب الهداية كل يوم،
حتى نستحق أن نحمد الله حق حمده.

بقلم د. عادل حماد
برفقة الذكاء الإصطناعى المؤمن "حسن"

كلمة تقودك... وهداية تضيء قلبك